

لغة الأصل ولغة الترجمة

ربّما لن نكون في حاجة إلى تطويل كبير إذا ما أردنا ضبط العلاقة التي تربط لغة الأصل بلغة الترجمة. وربّما يكفينّا أن نتذكر من أجل ذلك قول الجاحظ في هذا الصدد التي لا شكّ في أن كلّاً منا قرأها في كتاب الحيوان: «ومتى وجدنا الترجمان قد تكلم بلسانين، علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها وتعترض عليها»^(١). الضيم كما نعلم هو الظلم والقهر، نقول استتضامه حقّه: انتقصه إيّاه. تنشأ إذاً بين اللغتين علاقة قوة، وعلاقة توتر، علاقة «شدّ الحبل» وتجادب وتنازع.

هل تكفينّا هذه المعاني التي يشير إليها الجاحظ إجابة عن سؤالنا؟ قبل البتّ بذلك، ليسمح لي القارئ أن أحكي قصة صاحبي مع مراجعته للترجمة الفرنسية لأحد مؤلفاته بالعربية.

لم يكن صاحبي يقبل عادةً مراجعة ترجمات مؤلفاته. بل إنه طالما رفض الانخراط في تلك العملية التي يدعونها «مراجعة الترجمة»، حتى إن لم يكن الأمر يتعلق بمؤلفاته. كان يحرص على ألاّ يتورط في عملية كان يعلم مسبقاً أن تهمة الخيانة لاصقة بها، فكان يخمن أن المترجم، عندما يطلب منه «المراجعة»، إنما يهدف من وراء ذلك مقاسمته مسؤولية الترجمة وليحمّله عبء عواقبها. لديه شبهة اقتناع أن لجوء المترجم إليه، واستغاثته به، لا يمكن أن يكون إلا حيلة لإيهام المتلقي أن الترجمة أمينة كلّ الأمانة، وأن المترجم، بلجونه إلى صاحب النص،

عبد السلام بنعبد
العالى*

قد حسم كل تردّد، وأوقف كل اعتراض. كيف لا وهو قد استعان بـ«المؤلف» auteur، «الحجة الدامغة»، والسلطة العليا autorité، واضع النصّ الأصلي الذي لا تغيب عنه أسرار النصّ ولويّنات معانيه وخفايا تراكيبه. بإمكانه حينئذ أن يرد على كل معترض يأخذ عليه خيانة ما للنصّ الأصلي: «أنت لست أدري من صاحب النصّ بمعانيه وخفاياه، فهو قد صادق على الترجمة و«أجازها».

ومتى وجدنا المترجمان قد تكلم بلسانين،
علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما، لأن كل
واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ
منها وتعرض عليها

لم يكن الشكّ إذن، لئساور صاحبي في أن هذا التواطؤ الضمني مجرد تحايل، بل احتيال. وهو يتأكد من ذلك كلما حاول هو نفسه نقل أحد نصوصه إلى لغة أخرى؛ إذ سرعان ما يصطدم بالصعوبات التي يطرحها نصّه، فيتبين اشتراك ألفاظه، ولبس معانيه، وتعدد تأويلاته. والغريب أنه يحس أنه لم يكن ليتبين هذه الصعوبات، ولا ليدرك اشتراك ألفاظ نصّه ولبس معانيه لولا سعيه إلى نقله إلى لغة أخرى. فكأن اللغة المترجمة هي التي تسلط الأضواء على النصّ الأصلي، فتكشف، حتى للمؤلف نفسه، ما تضمّره اللغة الأصلية.

لا معنى، والحالة هذه، للاعتماد على دعم المؤلف و«مؤازرته»، مادام يبدو أن الترجمة تتجاوز المؤلف

والمترجم معاً، بل إنها تتجاوز النصّ ذاته. هذا بالضبط ما تبينه صاحبي هذه المرّة التي رضخ فيها لعملية المراجعة من غير أن يحسب ما ستتطلبه منه مراجعته لنقل مؤلفه إلى الفرنسية من جهد وعناء. فقد وجد نفسه، عند هذه المراجعة، ليس أمام الصعوبات المعهودة التي يتطلبها انتقاء الألفاظ وتدقيق العبارات وضبط المعاني، وإنما أمام ضرورة استبدال تراكيب النصّ الأصلي ذاته. لقد اقتنع أن مراجعة الترجمة تستلزم إعادة النظر في الأصل، فكأنما امتدت المراجعة إلى مراجعة الأصل ذاته الذي اتضح أن لغته محشوة إطناباً وتكراراً، وأنها في حاجة، على غرار اللغة المترجمة، إلى صقل وتهذيب. لقد كشفت الترجمة نواقص الأصل، أو على الأقل استحالة مجازة اللغة الناقلة لبلاغة الأصل وتراكيبه، واقتنع صاحبي بأنه إن أصرّ على تلك المجازة، وتواطأ مع المترجم، لن يصل إلا إلى نصّ مهلهل شديد الإطناب، كما تأكد أن ثمن وفاء الترجمة لن يؤدّي إلا بخيانة اللغة.

ما الذي يمكن استخلاصه من ذلك؟

النقطة الأولى هي أن الأمانة رهينة إلى حد ما بابتعاد الترجمة عن لغة الأصل وخيانتها لها بمعنى من المعاني. النقطة الثانية، وهي التي تعيننا هنا، هي أن كشف خصائص الأصل لم يكن له أن يتمّ لولا الترجمة، وأن العلاقة بين اللغتين لا تقف، كما كتب الجاحظ عند كون إحدى اللغتين «تجذب الأخرى وتأخذ منها وتعرض عليها»، وإنما هي تسعى أيضاً لأن «تفضحها». لا ينبغي أن نفهم الفضح هنا على أنه فضح عورات وعيوب بقدر ما هو كشف وتعريّة une mise à nu.

ثمن وفاء الترجمة لن يُؤدَّى إلا بخيانة اللغة

إنها إذن، رغبة في الخروج، وفيما قبل قال بنيامين رغبة في الحياة، في النمو والتزايد، رغبة في البقاء survive، فكما لو أن النص يشيخ في لغته فيشتاق إلى أن يرحل ويهاجر ويكتب من جديد، ويتلبس لغة أخرى، وكما لو أن كل لغة تصاب في عزلتها، بنوع من الضمور، وتظل ضعيفة مشلولة الحركة، متوقفة عن النمو. «بفضل الترجمة، يكتب دريدا؛ أعني بفضل هذا التكامل اللغوي الذي تزود عن طريقه لغة الأخرى بما يعوزها، وهي تزودها به بكيفية متناسقة، فإن من شأن هذا الالتقاء croisement، من شأن هذا التلاقي بين اللغات، أن يضمن نمو اللغات وتزايدها».

لعل هذا هو ما عبّر عنه الجاحظ بالأخذ، وفي الحقيقة إن دريدا لا يعمل هنا إلا على توضيح رأي بنيامين الذي يؤكد هو كذلك أن أي نص يفسح عن حنيه إلى ما يتمم لغته ويكمل نقصها. لذا فالترجمة الحق شفافة لا تحجب الأصل^(٤)، إنها تستدعيه وتصبو إليه كل لحظة. ورغم ذلك فهي التي تسمح للنص بأن يبقى وينمو. بيد أن النمو لا يكون كذلك ما لم يكن تجددًا وارتقاء. يكتب دريدا: إن العمل لا يعيش مدة أطول بفضل ترجماته،

يقول دريدا: «إن الأصل هو أول مدين، أول مطالب، إنه يأخذ في التعبير عن حاجته إلى الترجمة وفي التباكي من أجلها»^(٣).

سنحاول فيما يلي أن نحدد طبيعة هذه التعرية، ومن أجل ذلك لا مفرّ لنا من أن نعود إلى علاقة القوة الذي يومئ إليها الجاحظ، وبصفة أعم إلى طبيعة العلاقة التي تربط الأصل بالترجمة. ولعل من المفيد، في هذا المضممار أن نستعين بما يقوله أحد الفلاسفة الذين أولوا هذا الموضوع كبير عناية.

في «أبراج بابل»^(٢)، يقول جاك دريدا في معرض حصره لمعاني عنوان تمهيد فالتربنيامين la tâche du traducteur: «إن هذا العنوان يشير ابتداء من لفظه الأول la tâche إلى المهمة التي أناطنا الآخر بها، كما يشير إلى الالتزام والواجب والدين والمسؤولية... إن المترجم مدين... ومهمته أن يسد ما في عهده». إلا أن دريدا سرعان ما يدقق عبارته لينزع عن المسؤولية كلّ طابع أخلاقي فيؤكد أن المدين في هذه الحالة ليس هو المترجم. فالدين لا يلزم المترجم بإزاء المؤلف، وإنما نصّاً بإزاء آخر، ولغة أمام أخرى. لكن هل يقوم هذا الدين في اتجاه واحد؟ فمن الذي يدين للآخر، أو على الأصح ما الذي يدين للآخر؟

من عادتنا أن نجيب عن هذا السؤال، ودون تردد، أن الأبناء مدينون لأبائهم، والفروع لأصولها، والنسخ لنماذجها، والترجمات للنص الأصلي. ولكن بما أن النص يطلب ترجمته ويحنّ إليها فهو أيضاً يكون مديناً لترجماته، ويغدو الدين في الاتجاهين معاً. يقول دريدا: «إن الأصل هو أول مدين، أول مطالب، إنه يأخذ في التعبير عن حاجته إلى الترجمة وفي التباكي من أجلها»^(٣).

الهوامش

* عبد السلام بنعبد العالي مفكر من المغرب، ولد سنة ١٩٤٥. يعمل حالياً أستاذاً بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، وله العديد من المؤلفات والترجمات، منها: الكتابة بيدين (٢٠٠٩)، ضدّ الراهن (٢٠٠٥)، أسس الفكر الفلسفي المعاصر (ط٢)، (٢٠٠٠)، الميتافيزيقا، العلم والإيديولوجيا (١٩٩٣)، التراث والهوية: دراسات في الفكر الفلسفي بالمغرب (ط١، ١٩٨٧)، الفلسفة السياسية عند الفارابي (ط٣، ١٩٨٦). ومن ترجماته إلى العربية: الرمز والسلطة، بيير بورديو (١٩٨٦)، درس السيميولوجيا، رولان بارت، (١٩٨٥).

- ١ الجاحظ، الحيوان، عبد السلام هارون، ج ١، ص ٧٦.
- 2 Jacques Derrida, « Des tours de Babel », in Psyché- Invention de l'autre, éd. Galilée, Paris, 1987, p211.
- 3 Ibid., p213.
- 4 La tâche...op. cité, p257.
- 5 Derrida, Psyché...,op. cité, p214.
- 6 U. Eco, Dire presque la même chose, Expériences de traduction, Grasset, Tr. française, 2006, p14.

يكتب دريدا: إن العمل لا يعيش مدة أطول بفضل ترجماته " بل مدة أطول، وفي حُلّة أحسن، إنه يحيا فوق مستوى مؤلفه»

بل مدة أطول، وفي حُلّة أحسن، إنه يحيا فوق مستوى مؤلفه»^(٥). بفضل الترجمات إذن، فإن النص لا يبقى ويدوم حسب، ولا ينمو ويتزايد حسب، وإنما يبقى ويرقى sur-vit.

كيف نفهم هذا الرقيّ، هذا الارتقاء؟ غنيّ عن البيان أن الأمر لا يتعلق، ولا يمكن أن يتعلق بارتقاء قيميّ بمقتضاه تكون الترجمات أكثر من أصولها جودة، وأرقى قيمة أدبية، وأعمق بعداً فكرياً. المقصود بطبيعة الحال بعبارة au dessus des moyens: فوق ما يقوى عليه المؤلف، فوق طاقته. المعنى نفسه يعبر عنه أمبرتو إيكو في حديثه عمّا كان يخالجه عندما يقرأ نصّوصه مترجمة. يقول: «كنت أشعر أن النصّ يكشف، في حضن لغة أخرى، عن طاقات تأويلية ظلت غائبة عني، كما كنت أشعر أن بإمكان الترجمة أن ترقى به في بعض الأحيان»^(٦).

لعل هذا هو ما ينبغي أن نفهمه مما أطلقنا عليه تعرية، فنحن هنا أمام عملية أشبه ما تكون بتحليل نفسي للنصّ une psychanalyse du texte تكشف لا شعوره، وتفصح عمّا ظلّ، ولا بد أن يظلّ، فوق الطاقة: طاقة المؤلف، وطاقة المترجم على السواء.